(١)
على شواطئ
الفكر والفلسفة

obeikandl.com

سوف نبحر سويا فى رحلة بالغة الثراء فى ملكوت الله . . هذا الملكوت اللانهائى، الذى يبرز عظمة الخالق العظيم واهب الحياة، ونبدأ رحلتنا من خلال الرؤى المختلفة فى الفكر والفلسفة، ونعرج منها إلى العلم، لنصل إلى المرفأ الآمن فى رحاب الدين، حيث تنجلى الرؤية . . وتتضح الحقيقة، ويتبين مغزى الحياة ومعنى الوجود.

عندما أعود بذاكرتى إلى الوراء . . إلى أيام الطفولة والشباب وأفكر اليوم بعد أن تجاوزت مرحلة الشباب عما أتذكره من شريط العمر . . فإننى أجد مساحة زمنية من العمر قد نسيتها . . اختفت فى زوايا النسيان، ولم أعد أتذكر منها شيئا وإن كانت تركت بصماتها على صفحات أيامى . . !

وتبرز أسئلة كثيرة . . حائرة ومحيرة عن رحلة العمر ما الذى استفاده منها الإنسان؟ . . وهو يرى طفولة قد طوت أحداثها الأيام.

وشباب كان للإنسان فيه تطلعات وسواء تحققت هذه الأحلام والتطلعات أم لم تتحقق، فقد أصبحت ماضيا . . والماضى قد مضى، ومستقبل الأيام سوف يتحول هو الآخر إلى ماض، تحت وطأة سرعة مرور الزمان . . ولايبقى إلا الصدى . . وتعود من جديد علامات الاستفهام الحائرة والمحيرة.

ماذا استفدت من هذه الرحلة . . ؟

ما حساب المكسب والخسارة؟

وما هو العائد من هذا العمر الذى مضى معظمه، وما بقى فى علم الغيب؟

وربما يشتط بالإنسان الخيال فيتذكر أنه كان يوما ما جنينا فى رحم أمه قبل أن يقذف به إلى أمواج الحياة.

ما الذى يتذكره الإنسان فى هذه المرحلة؟

والإجابة.. لاشىء على الإطلاق..!

فإذا ما تمادى الخيال بالإنسان، وتساءل أين كان قبل ذلك؟ فى تلك المرحلة التى قال عنها أفلاطون.. أن الإنسان قبل أن يوجد كان فى عالم (المثل).. عالم تصور فيه الفيلسوف اليونانى أن كل إنسان عاش هذا العالم، وعندما يتذكر ما مر به من أحداث فهذا هو العلم، وعندما لايتذكر شيئا فهو الجهل.. فالعلم تذكر والجهل نسيان!

* * *

ولا أعرف كيف وصل أفلاطون إلى هذا التخيل، وهو الذى نشأ فى بيئة لم تصلها رسالة سماوية، ولاهتف على أرض بلاده نبى برسالة السماء.

هل هو الذكاء الإنسانى عندما يطلق لخياله العنان وهو يتساءل عن الإنسان ومغزى وجوده؟

ولماذا جاء وكيف جاء إلى الوجود؟! أم مجرد توهم أسطورى كتلك الأساطير التى امتلأت بها بلاد الإغريق.. فهى بلاد العقل

والأساطير، البحث عن الحقيقة والاستغراق فى الخرافة فى نفس الوقت!

ولكن الذى يثير الدهشة فيما ذهب إليه أفلاطون، أن الإسلام يورد حقيقة أن الإنسان وجد فى عالم (الذر).. وأنه فى هذا العالم قد شهد بوحدانية الله سبحانه وتعالى.. أى أن الإنسان كان له وجود أزلى فى عالم (الذر) هذا.. ولكن كيف كان هذا الوجود.. وهل يتذكره أحد؟!

وبالتأكيد إن هذا الوجود حقيقة لأن القرآن ذكره، ولكن كيف؟.. لا أحد يتذكر هذا.. ولايعرف هذا كما لم تتذكر لحظات وجودك كجنين فى بطن أمك.. أو لحظات الطفولة المبكرة؟!

يقول تعالى فى سورة الأعراف:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِى آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢، ١٧٣].

فكل البشر من آدم.

ومن ظهر آدم خرج الأنبياء والأحفاد وأحفاد الأحفاد إلى أن عُمِّر الكون بالإنسان، وأصبح له وجود فى مختلف القارات.. ولكن الأصل هو آدم.. وكل إنسان حياته ممتدة إلى آدم.. ومن ظهر آدم حيث تجمعت بداية الإنسانية أشهدنا الله على أنفسنا..

ويفسر ذلك حديث الرسول عليه الصلاة والسلام:

«إن الله مسح على ظهر آدم، وأخرج منه الذرية المطمورة فيه، والتى ستأتى إلى الحياة حتى قيام الساعة. وقال لهم ألست بربكم؟ قالوا نعم أنت ربنا سبحانك».

* * *

وجودى إذن حقيقة..

وحقيقة هذا الوجود يتجلى فى أننى أسمع وأرى وأدرك وأفكر، وأستفيد من تجارب السنين.. وأرسم مستقبلى على ضوء ما مر بى من تجارب العمر وكل هذا يدخل فى دائرة المعرفة.. ولكن قد أريد شيئا ولا يتحقق هذا الشيء.. وأتخذ لنفسى طريقا ولكنى أجد نفسى أسلك طريقاً آخر.. وهنا نقول إنها الأقدار.. والأقدار غيب.. والغيب من صميم الإيمان.. ومن هنا نجد أن على الإنسان أن يعمل بالأسباب حتى يتواءم مع الحياة.. فإذا خرجت الأمور من يديه فعليه أن يؤمن بأن هذا هو القدر.. ومن صميم الإيمان أيضا الإيمان بالقدر خيره وشره كما يقول أعظم رسل السماء عليه الصلاة والسلام.

وكثيرا ما كنت أتأمل فى الحياة والأحياء.. عن هذا الوجود..

كيف جاء الإنسان إلى الحياة؟

ولماذا جاء إليها..؟

وما رسالته فى هذه الحياة؟

أسئلة كثيرة.. حائرة ومحيرة.. أتعبت المفكرين والفلاسفة وفى نهاية تفكيرهم لم يجدوا لعلامات الاستفهام هذه إلا المزيد من علامات الاستفهام.

ولا جواب..!

* * *

وعندما تلتمس المعرفة من العلم.. والعلم لايؤمن إلا بالتجربة والواقع.. إنه يفسر الأمور ولكن لايعرف الغايات، فنجد أن العلم رغم تقدمه المذهل فى مختلف المجالات.. مازال عاجزا عن فهم اللغز الإنسانى.. مازال عاجزا عن تفسير السلوك الإنسانى.. ودوافعه ونوازعه.. عشرات من المدارس النفسية كل مدرسة لها تفسير خاص عن نفسية الإنسان وما الذى يحركه إلى الخير أو الشر، لماذا يعيش سعيدا، أو تعيسا؟

لماذا يبتهج بالحياة ولماذا يصيبه الاكتئاب؟ ولماذا تتغير كيمياء الجسم عندما ينتاب الإنسان حزن أو ألم؟.. تبرز علامات الاستفهام الكثيرة.. وتظل الحقيقة عزيزة المنال..

.. والإنسان داس بأقدامه على أرض القمر، وتجاوزه فى رحلات الفضاء إلى المريخ.. ولكن الإنسان مازال على أبواب الفضاء.. أما الفضاء نفسه الذى يضم الكواكب والنجوم والمجرات، والذى يمتلىء بملايين الملايين من هذه المجرات.. حيث يتسع الكون اتساعا مذهلا.. ويفصل بين المجرات ملايين السنين الضوئية..

أمام هذا الكون الفسيح يجد الإنسان نفسه لم يتخط سوى عتبته ومازال لغزا. . ومازالت عشرات النظريات فى الفلك تصبو إلى الحقيقة. . ولكن الحقيقة نفسها شىء عسير المنال. . !

والإنسان نفسه. . ليس على مستوى مشكلاته النفسية فقط ولكن على مستوى حياته العضوية مازال لغزا، ومازال هناك من الأمراض ماتزال لغزا محيرا يقف الطب أمامها عاجزا متخاذلا. .

وما يقال عن عالم الفضاء وعالم الطب يمكن أن يقال فى مختلف العلوم. .

* * *

الإنسان تقدم . . نعم . .

الإنسان وصل فى غضون العقود الثلاثة الماضية ما يساوى تقدمه عبر كل العصور. . هذه حقيقة!

ولكن الحقيقة الأكثر تأكيداً. . أن الإنسان لم يعرف إلا أقل القليل. . وأن ألغاز الحياة كثيرة. . وأن الحقيقة الحتمية هى أننى كما أعيش سوف أموت. . طال العمر أم قصر. . وأن الحياة تمضى بسرعة. . وأن الإنسان فيها كما قال عليه الصلاة والسلام: «كراكب استظل بظل شجرة ثم تركها». . !

ولكن تركها إلى أين؟

* * *

هذا هو السؤال الذى حفز الناس على معرفة ما وراء الموت.. وما وراء هذه الحقيقة المؤكدة.. الملحدون وجدوا أن هذه هى حياتهم الدنيا وما يهلكهم إلا الدهر..!

والمؤمنون يرون أن الحياة ما هى إلا جسر للعالم الآخر.. عالم الخلود.. وأن على الإنسان ليعيش حياة هانئة بعد أن يعبر جسر الحياة.. أن يعمل بما أنزل الله.. السير على دستور الله.. فعل ما أحله الله، والبعد عما حرمه الله.. ساعتها يصبح عالم الخلود.. هو عالم السعادة.. والإقامة الخالدة.. لا أمراض تنهش جسد الإنسان وتنهك قواه، ولا شيخوخة تهز كيانه وتقصر ماء الحياة فيه، ولا أمراض نفسية تخلخل معالم شخصيته.. ولكن نعيم مقيم.. وسعادة دائمة.

أما كيفية هذا النعيم وتصوره، فهو غيب لا يعلمه إلا الله تعالى.. غيب يجب أن نؤمن به.. لأن الله سبحانه وتعالى أورده فى كتابه وعلى لسان رسله وأنبيائه..و.. الإيمان بالغيب من صميم الإيمان. والمؤمنون هم الذين آمنوا بما جاء به وحى الله سبحانه وتعالى على محمد عليه الصلاة والسلام وما سبقه من الأنبياء والمرسلين، وبما جاءتهم به الكتب السماوية كالتوراة والإنجيل والزبور، وهم الذين يؤمنون بالملائكة واليوم الآخر.

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

* * *

والملحدون لايؤمنون بالله ولكنهم يردون كل شيء إلى الطبيعة، وكأن الطبيعة لها عقل يدرك، ويدبر، وينسون أن الحجر لايمكن أن يتطور إلى شيء.. ولايفكر فى شيء.. فالمادة لاتتطور وبالتالى لاتفكر.. ولاتملك لنفسها نفعا ولاضررا.. فكيف تكون الحياة بما فيها من حيوية وحركة وطاقة وقدرة على التطور والتشكيل، كيف تتطور بلا فكر خلاق أو غير خلاق..

إن الملحدين بأفكارهم هذه سطحيون إلى أقصى حدود السطحية.. أغبياء إلى أقصى حدود الغباء.. فكيف تفكر هذه الطبيعة.. كيف تسير بهذا الاتساق العجيب؟

كيف لا تصطدم النجوم والكواكب؟

يقولون بفعل الجاذبية..!

وهنا نتساءل.. كيف أخذت هذه الكواكب والمجرات مسارها بحيث يسير الأصغر فى فلك الأكبر؟!

أليس هذا دليلا على أن هناك قوة عظمى وراء هذه الطبيعة وضعت لها قوانينها. حتى يصبح ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣].

العقل يقول ذلك.

والمنطق يقول ذلك.

والعلم يقول ذلك.

والجهل هو الذى يأبى إعمال العقل والمنطق والعلم.. لأن كل شىء فى الحياة يسير على قانون.. قانون كلى يحكم كل الكائنات الحية.. وغير الحية.

* * *

ومن هنا يرى المؤمنون قدرة الله تتجلى فى كل شىء.. فى الحياة وتألقها.

فى جريان المياه فى الأنهار وحتى تأخذ طريقها إلى البحار والمحيطات.

فى جمال الزهرة.. وتألق النجوم فى كبد السماء.. وفى جمال الشروق.. وجلال الغروب.. فى ظلام الليل حين يسدل أستاره على الكون، وفى سطوع القمر بأضوائه الشاحبة الساحرة التى تخفف من رهبة الظلام.

فى الجبال الشم.. وفى الوديان الممتدة، وفى الصحراوات برمالها الصفراء وجبالها.. ومنابع الماء وسط هذه الصحراء الجرداء.

الذين يعيشون فى الوديان.. والذين يعيشون فى الجبال، والذين يعيشون فى الصحراء حول نبع من المياه وسط وحشتها العجيبة.. كل هؤلاء يعيشون.. ويتمتعون بحياتهم.. وينشد الشعراء فى بيئاتهم تلك أعذب الأشعار.. ويشعرون بالانتماء.. مثلهم مثل سكان المدن الآهلة بالسكان وناطحات السحاب ودور اللهو والتسلية.. ومثلهم أيضا سكان القرى.. الكل يعيش حياته بما فيها من أمل وألم، سعادة وشقاء.. ولكن كل هذه البيئات المختلفة.. مؤهلة لاحتضان الإنسان ليعيش فيها، ويتكيف بها.. ويرى فى المكان الذى ولد فيه.. وشاهد مراتع صباه، وتطلعات شبابه.. وقد يضم رفاته عندما يأتيه الأجل المحتوم.. الكل يتواءم مع وطنه.. يكافح سنوات عمره فى سبيل لقمة العيش، وفى سبيل البحث عن مستقبل أكثر أمانا وإنتاجا ولكن فى النهاية.. لابد من الرحيل.

بل أننا فى عصرنا الحديث.. وقد أصبح العالم كما يقولون قرية اليكترونية صغيرة.. بمعنى أن الإنسان فى أى مكان فى هذا العالم يعرف ما يدور فيه من أحداث ساعة وقوعها عن طريق وسائل الاتصال الحديثة.. عصر التليفزيون والأقمار الصناعية والانترنيت وثورة المعلومات وثورة الكمبيوتر.. ولكن مهما تقدم الإنسان فى

مجال العلم والحضارة.. فلن يمنع المرض.. ولن يمنع ما يتسرب إلى نفسه من أمراض نفسية وعلل عضوية.. مما يحول بينه وبين السعادة التى يرنو إليها.. ثم يكون الموت فى النهاية قدرا محتوما..

* * *

ولأن الحياة مشروع إلهى شاء الله أن نحياها، فلابد لكى تكون لهذه الحياة معنى أن نستمد مقومات حياتنا من جلال الله.. باتباع ما أمرنا به على لسان أنبيائه ورسله، ونبتعد عما نهانا عنه.. ومن هنا يصبح للحياة معنى.. وتكون جديرة بأن نحياها.. وأن نعمل فيها كما يقول الإمام على رضى الله عنه «كأننا نعيش أبداً ونعمل لآخرتنا كأننا سنموت غدا»..

وهذه الحكمة التى أوجز فيها الإمام أهمية أن نحيا لدنيانا ونعمل من أجلها ليكون لوجودنا نفسه معنى، وأن نعمل لآخرتنا حتى نسعد فى أخرانا.. لم يفطن إليها الذين يفكرون من خلال فكر فلسفى غبى.. يرى أن الدنيا هى التى نعرفها.. وأن علينا أن نسعى إلى ما فيها من ملذات.. كما نرى فى فلسفة (أبيقور) الذى يتصور أن الحياة مهزلة ينبغى أن نغتنم ما فيها من لذة، ولكنه يفطن أن الموت هو نهاية كل حى، فلا يرى فى الموت إلا المنقذ مما فى الحياة من مهازل.

ويقول: إن الموت هو الطبيب الرفيق الذى يشفينا من أشد الأمراض فتكا وهو مرض الحياة!!

ومادام الموت هو الحقيقة المؤكدة ففى رأيه عدم الخوف أو الانزعاج منه.. لأنه يرى أن الإنسان كان عدما قبل أن يأتى إلى الحياة، فإذا ما جاء إلى هذه الدنيا فالحياة فى رأيه رقصة فاتنة بين لحظتين خالدتين من النوم اللذيذ!!

وهذا كلام متهافت لأن الإنسان إذا كان يغط فى العدم فكيف يجد لذة فى هذا العدم!

ولو سرنا وراء هذه الفلسفات المتشائمة ما تقدمت الإنسانية.. ولا سعد الإنسان بحياته.. فالذين يرون عبثية الحياة لايحسون بما فى الحياة من مباهج.

* * *

ولقد قرأت الفلسفات المختلفة التى تحاول أن تفسر الوجود.. وتفسر دور الإنسان فى هذا الوجود.. وتحدثت بعض هذه الفلسفات عن العذاب الإنسانى، وتحدث بعضها الآخر أن الجحيم هم الآخرون.. وكأن الإنسان يمكنه أن يعيش فى جزيرة معزولة عن الآخرين.. ونسيت مثل هذه الفلسفات أن الإنسان لايشعر بوجوده إلا مع الآخرين.. وبالآخرين.. وأن ما يلاقيه الإنسان فى المجتمع الذى يعيش فيه من آلام ربما يرجع إلى عدم القدرة على التكيف مع الآخرين.. أو الفقر.. أو الجهل.. أو المرض.. أو أى سبب يجعل هناك مسافة بينه وبين الآخرين.. ولكن الحل لايأتى بأن (الآخر) هو

الجحيم.. الحل يأتى مع القدرة على التكيف مع هذا الآخر.. وإيجاد النظم التى تكفل التكافل الاجتماعى للجميع.. وتكفل من القواعد ما يجعل الجميع فى الوطن الواحد وكأنهم يعيشون فى مركب واحد.. يتجه إلى هدف واحد.. نحو مصالح مشتركة.. وهذا ما لا نجده فى أى فلسفة من الفلسفات.. فالفلسفات تضرب أخماسا فى أسداس، ولكنها لاترسم طريقا، ولاتوضح هدفا.. إنها مجرد رياضة عقلية لاتفيد الجاهل، ولا تنفع الذكى كما قال ابن تيمية عن منطق أرسطو!!

* * *

وإذا سرنا وراء هذه الفلسفات التى تتسم بالتشاؤم ولاتفتح طريقا للأمل.. بأننا نتيقن من تهافت هذه الفلسفات التى لاتصلح منهجا للإنسان فى حياته.

فشوبنهاور مثلا يرى أن الإنسان لو عرضت عليه الحياة قبل أن يحياها لرفضها لأنه ليس فيها ما يدعو إلى السعادة، وحتى هؤلاء الذين يحسدون غيرهم فى الحياة على ما هم فيه من السعادة واهمون لأنه ليس هناك إنسان سعيد! وبالتالى فإن هذا العالم فى نظره ما كان ينبغى أن يوجد!! فعدم هذا العالم أكثر جدوى من وجوده!

ويقول شوبنهار:

- كل شىء فى الحياة يوضح أن السعادة الأرضية مصيرها إما إلى الفساد، وإما إلى أن تكون مجرد وهم وخداع.

ونرى أديبا مرموقا كتولستوى يرى أن الانتحار نوع من الشجاعة!!

ونرى فيلسوفا آخر.. وهو نيتشة يلخص حياته بقوله: إحراق واحتراق.. تلك كانت حياتى!

ونسى أنه هو الذى أحرق نفسه بنفسه بفلسفته التى أسماها فلسفة القوة، وفيلسوف القوة الذى كان يرى أنه لاينبغى الرأفة بالضعفاء والمساكين وتطهير المجتمع منهم، وأنه ينبغى أن تسود فلسفة السادة لا فلسفة العبيد.

فلسفة مبنية على القهر.. فليس للضعفاء مكان فى مملكته.. فالطيور الجارحة فى رأيه لاتخجل من اعتدائها على الخراف المستضعفة!

وتمادى الرجل فى فلسفته الإلحادية فأنكر وجود الله ووجود الجنة والنار، حتى أن صديقه الفنان الشهير فاجنر أطلق عليه المجنون!

وكان يقول أنه نبى دين جديد.. دين اللامسيحية؟

وأخذ يبشر بالإنسان الأعلى (السوبرمان).. وأن تحل هذه الفكرة محل (الله)!

يقول هذا الفيلسوف المريض جسدياً، والذى ينادى بفلسفة القوة:

- (إن الإنسان الأعلى هو الإله الجديد، أن علينا أن نضع الله.. ولكن حذار من أن نصنع الله على صورتنا ومثالنا، إلها بشريا، إلها غاية فى الإنسانية، فلنضع أنفسنا نحن على صورة الله، ولتكن هذه الصورة فوق إنسانية) إلى آخر تخاريف هذا الفيلسوف الذى انتهت حياته بالجنون.. فقد مات وهو مجنون بالفعل!

- وهل هناك جنون أكثر من قوله:

«إلى أين مضى الله؟

سأقول لكم أين مضى.. لقد قتلناه.. أنتم وأنا.. أجل نحن الذين قتلناه.. نحن جميعا قاتلوه.. ألا تشمون رائحة العفن الإلهى.. إن الآلهة أيضا تتعفن؟.. لقد مات الله وسيظل الله ميتا».

فيلسوف.. فقد عقله.. ولم ينبهر به أحد سوى الصهيونية العالمية التى روجت لفكره حتى تستطيع هدم الأديان.

فيلسوف لاينشر نور العقل.. ولانور اليقين بل يصور الحياة غابة.. البقاء فيها للأقوى.. غابة مليئة بالوحوش المفترسة.. لامكان فيها للرحمة ولا التكافل الاجتماعى، ولا الإخاء الإنسانى، ولا حتى الحب!

ونيتشة هذا الفيلسوف الذى يصفق لفلسفته السفهاء، لم يكن على وفاق مع حياته قط، ولم يستطع أن يكوّن صداقة حقيقية بينه

وبين الآخرين، وحتى فشل فى حبه مع المرأة، ولم يستطع أن يكّون أسرة.. بسبب فشله المتكرر فى الحب قال مقولته الشهيرة:

- لاتذهب إلى المرأة إلا والسوط معك!

إنها كلمة تنم عن فشله كإنسان سوى، وتنم عن عقد نفسية دفينة فى نفسه، فكيف يستساغ لإنسان أن يرى فى فلسفته مصباح ضوء فى ليالى الحياة..

* * *

الفلسفة إذن لم تستطع أن ترسم طريق الإنسان فى الحياة.. وعلامات الاستفهام الغامضة فيها أكثر من الإجابات الواضحة المعالم والقسمات، ويظل الإنسان خليفة الله فى الأرض لغزا..

ويورد لنا فؤاد كامل فى كتابه (الشخصية بين الحرية والعبودية) رأى الفيلسوف الروسى الشهير (نيقولا برديائيف) فى الشخصية.. هذا الفيلسوف الوجودى المتصوف والذى يجعل من الشخصية الإنسانية محورا لفلسفته، ويضفى عليها كما يقول المؤلف - ما يذكرنا بجوهر النظرة الإسلامية إلى الإنسان.. أعنى بوصفه خليفة الله على الأرض.. وقد عرض (برديائيف) رأيه هذا فى الشخصية فى كتابه القيم (العبودية والحرية) وملخص هذا الرأى:

الإنسان فى هذا العالم لغز، بل لعله اللغز الأكبر وليس الإنسان لغزا لأنه حيوان اجتماعى، أو بمعنى آخر لأنه جزء من الطبيعة

وعضو فى مجتمع، بل هو لغز لأنه شخص، ولأنه يمتلك شخصية، فالعالم كله ليس شيئا إذا قورن بالشخصية الإنسانية، ويشخص الإنسان الفريد، ومصيره المتفرد، الإنسان يعيش فى كبد، ويتحرق إلى معرفة نفسه.. من أين جاء وإلى أين هو ذاهب؟

ويستطيع الإنسان أن يعرف نفسه من أعلى أو من أسفل، من نوره الخاص.. من المبدأ الإلهى الكامن فى طبيعته، أو من ظلامه الخاص، من مبدأ اللاشعور الأولى الشيطانى المستقر فى أعماقه، وهو يستطيع أن يفعل ذلك لأنه كائن مزدوج متناقض.. فهو شبيه الإله، وشبيه الحيوان، يسمو إلى الذُّرا وينحط إلى الحضيض، حر ومستعبد، قادر على أسمى أنواع الحب والتضحيات، ولكنه خليق فى الوقت نفسه بارتكاب أبشع ضروب القسوة والعنف والأنانية.

الإنسان إذن لغز.

عاجز عن إدراك ذاته.. وإدراك ما حوله.. وإنه يتوسل بالفكر أن يعرف لغز هذه الذات وإنه يتوسل بالعلم أن يفك طلاسم الوجود وقد منحه الله العقل رغم محدوديته للوصول إلى هذه المعرفة.. ولكنه بالعقل المحدود، والعلم المحدود يتقدم شيئا فشيئا.. وجيلا بعد جيل لإدراك أمور، وتخفى عنه أمور..

فقد حاول أن يفسر الوجود وتغلب على التفسير وهم الخرافات والأساطير..

وتاريخ الإنسان ملىء بالخرافات متمثلة فى العبادات التى مارسها من عبادة الكواكب والنجوم والشياطين وتدنى حتى عبد الأصنام والأوثان.. وتصور الإنسان الإغريقى أن على جبل الأوليمب آلهة لها تواريخ البشر، وشرور البشر، وأنها تتصارع وتحقد على بعضها، وتحقد أيضا على الإنسان وتغار منه.. !!

وهذا لايعنى رغم قصور العقل عن الوصول إلى الحقيقة التى توصل إليها الإنسان عن طريق الوحى.. لايعنى أن الفلسفة كانت حجر عثرة فى سبيل التقدم الإنسانى، بل أن الفلسفة كان لها دورها فى اختراق حاجز الخرافات والأساطير، وجعل العقل الإنسانى أمام مسئولياته، فلم يتورع هذا العقل أن يناقش بجسارة مختلف القضايا وأن يضع فيلسوف كأرسطو المنطق الذى تعرف به الصواب من الخطأ ولكن الفلسفة فى كل عصر تجىء انعكاسا لما فى هذا العصر وما يسوده من ثقافة وعقائد وحضارة.. ولعل الدكتور زكى نجيب محمود عندما كتب كتابه (الشرق الفنان) والذى تحدث فيه عن جوهر الثقافة العربية بمقارنتها بكبرى الثقافات التى شهدها التاريخ، كان فى تصوره للأمر كما يقول فى كتابه (تحديث الثقافة العربية) هو أن التاريخ قد شهد ثقافتين عظيمتين، إلى جانب الرفعة العربية التى تميزت دونهما بخصائص انفردت بها، أما تلك الثقافات فكانت أحداهما هى ثقافة الشرق الأقصى من جهة الشرق، وكانت الأخرى

هى ثقافة اليونان القديمة من جهة الغرب، وهذه هى نفسها التى أصبحت فيما بعد بمنزلة الجذور التى انبعث منها ثقافة الغرب، فى أوربا أولا، ثم فى أمريكا الشمالية بعد ذلك.

ويقول الدكتور زكى نجيب محمود:

وكان الأساس الذى اتخذته لهذا التقسيم، هو وسيلة الإدراك الأساسية فى كل من الثقافات الثلاث الشرق الأقصوية، واليونانية والعربية، كما تجلت تلك الوسيلة الإدراكية فى الناتج الثقافى المتوارث فى كل منها، فواضح أن المأثور الثقافى فى الشرق الأقصى، كان أهم ما فيه كتب الديانات فى ذلك الجزء الفسيح من العالم وهى كتب نقرأها فنقرأ ما يشبه الأدب شعرا ونثرا، فهو كلام ينبع من صميم القلب، وينضح من خبرات إنسانية دافئة وأصيلة، وموجه مباشرة نحو الإنسان فى حياته الأخلاقية وكيف ينبغى له أن يقطع رحلة الحياة فى دنياه، وإذن فقد كان الوسيلة الإدراكية الأولى عن أصحاب تلك الثقافة هى نفسها وسيلة الشاعر والأديب والصوفى والفنان، وواضح كذلك أن ثقافة اليونان القديمة، إذا أخذنا جانب الفكر الفلسفى والعلمى من تراثها - كانت مؤسسة على منطق العقل، كما يتجلى ذلك المنطق العقلى فى عمليات استدلالية، توضح فيها فروض لتستخرج منها نتائجها عن طريق المنهج القياسى، الذى صاغ أرسطو نظريته بكل تفصيلاتها، وهو المنهج

الذى نقله العرب عن اليونان، فيما نقلوه من تراث اليونان القديمة وأصبح ذلك المنطق من أبرز الملامح التى كان يتميز بها المثقف العربى، أيا كان بعد أن تخصص فوق ذلك، وجاءت الثقافة العربية وسطا بين ذنيك الطرفين، لا بالمعنى الذى يجعلها تأخذ قبضة من تلك، وقبضة من هذه لتؤلف بينهما، فإذا هذا الذى هو ألفته هو ثقافتها العربية، بل بالمعنى الذى يجعل لها بادىء ذى بدء وقفتها الخاصة، استخلصتها من موقعها ومن طبيعة أقليمها، فمكنتها تلك الوقعة الخاصة من أن تستخدم وسيلتى الإدراك - السالف ذكرهما - إحداهما عند شعوب الشرق الأقصى، والأخرى عند الإغريق - كما مكنتها من أن تضفر تلك الوسيلتين فى جديلة واحدة، بحيث أصبح كل عربى ذا رؤية يكون بها صوفى الاتجاه آنا، وعقلى الاتجاه آنا آخر، فإذا نظرت إلى الموقف كله فى جملته بنظرة ترسلها من عل، وجدت الشاعر وصاحب النزعة العقلية، قد اجتمعا فى العربى، ووجدت كذلك أن كلا من الاتجاهين، قد امتد وارتفع إلى ذروته فى شامخ بعد شامخ، فهنا المتصوف أو الشاعر العملاق، وهناك الفقيه أو العالم فى مجال من مجالات العلم.

ويرى الدكتور زكى نجيب محمود أنه لولا أن معدة العربى قادرة على هضم هذا الناتج العقلى، لما استطاع العرب وهم فى مجدهم ينقلون عن الهند تصوفها، وعن اليونانيين فلسفتهم

وعلومهم ليمزجوا هذه الحصيلة كلها مضافة إلى ما عندهم من دين وشعر، فإذا كل هذا يتمثل فى كتابات الكُتاب، وفى نقد النقاد، وفى فقه الفقهاء (من حيث منطق القياس) بل وفى شعر الشعراء كذلك وحسبك أن تقف عند رجل واحد كأبى العلاء المعرى، لترى صورة تلك المحصلة الثقافية فى أوجها.

* * *

وواضح أن الدكتور زكى نجيب محمود قد جمع محصلة ما توصل إليه من تأثير الثقافات بعضها ببعض، وسمة كل ثقافة من هذه الثقافات.

ومن خلال دراستى لهذه الفلسفات المختلفة.. سواء وقفت معها أو ضدها، ما كانت لتزدهر فى عالمنا العربى، ما لم يكن الإسلام بشموخه وعظمته وحثه المؤمنين به على قراءة كتاب الكون، ودراسة مختلفة الظواهر المادية التى يراها فى الوجود من حوله، ليدرك من خلالها عظمة الخالق - جل علاه - بالضبط كما يقرأون كتاب الله الذى أنزل على آخر رسله وما فيه من عقيدة وتشريع وعبادات.

* * *